# ملامح من الفكر اللساني
# عند الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح
# قراءة في بعض النماذج

أ.د. محمد صاري
جامعة محمد الشريف مساعدية / سوق أهراس

**مقدمة:**

تهدف الدراسة إلى إجراء قراءة في المنجز اللساني عند الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح (يرحمه الله)، الذي خلَّف مسيرة علمية حافلة بإنجازات يمكن أن توصف بأنها ثورية في لسانيات اللغة العربية على وجه الخصوص، وفي تقويم التفكير اللساني البشري عموما، امتدت زمانيا ودون انقطاع على مدى نصف قرن أو يزيد من الإنتاج العلمي الرصين باللغتين العربية والفرنسية، والعمل الأكاديمي الجاد، وبالضبط منذ أن كان أستاذا بجامعة الرباط سنة 1961م إلى أن وافته المنية رئيسا للمجمع الجزائري للغة العربية يوم الأحد 5 مارس 2017م[1].

ولا غرابة في هيمنة لسانيات التراث على أبحاث الدكتور الحاج صالح، الذي يُعد بحق رائدا لسانيا في الوطن العربي والجزائر على الخصوص. وانشغاله المستمر بالمراجعة والمقارنة والربط بين الفكر اللساني الخليلي الأصيل وأحدث النظريات اللغوية يوحي بقناعة لديه واعتقاد راسخ: أن التراث اللغوي العربي

1- عينه الرئيس عبد العزيز بوتفليقة رئيسا للمجمع الجزائري للغة العربية سنة 2000م بعد أن كان رئيسا للجنة إصلاح التعليم بالجزائر.

الذي امتد على مدى قرون من العطاء والخصوبة، مازال حيا محاورا، نقرأه دون أي إحساس بالمسافة الزمنية بينه وبين الكشوفات التي أثبتها الرواد في حقل اللسانيات وفروعها المختلفة. وقد عبرعن هذه القناعة بوضوح عندما سُئل ذات مرة في ندوة علمية: « هل أنتم من المحافظين؟» فأجاب بصريح العبارة: **«لست محافظا ولا مجددا، ولكن أبحث عن المفيد؛ اكتشفنا في القديم شيئا عظيما لم نجده في الحديث، ولو اكتشفناه في الحديث لأخذنا به»**. وعليه، ظل الدكتور الحاج صالح طيلة مسيرته العلمية، بعد تحصيل معرفة شاملة لمناهج القدماء، وتكوين عميق في مناهج المحدثين، يعرِّف من خلال مشروع قراءة التراث معشر الباحثين العرب والغربيين في علوم اللسان بخصائص لسانيات اللغة العربية، ومضامينها النوعية، ويثبت في المناسبات العلمية المختلفة الحلقة المفقودة التي تجاهلها بعض الغربيين عندما أرخوا للفكر اللساني البشري[1]. إن اهتمامنا بواقع الكتابة اللسانية وخصوصيات الخطاب اللغوي عند الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح نابع مما تميزت به أعماله من أصالة وتجديد، وسنحاول من خلال هذه الدراسة الكشف عن بعض ملامحها انطلاقا من فحص عينات[2] من أبحاثه ومؤلفاته.

1 - قال جورج مونان في كتابه مفاتيح الألسنية: « إن تاريخ نشأة اللسانيات يحدد بحسب نظرة الباحث إليها؛ فيمكن أن يقال إنها نشأت في القرن 5 ق.م [ إشارة إلى الدراسات الهندية القديمة مع بانيني]، أو مع بوب Bopp سنة 1816م، أو مع سوسور سنة 1916م، أو مع تروبتسكوى سنة 1926م، أو مع تشومسكي سنة 1956م «.انظر: G. Mounin : Clefs pour la linguistique, Paris, Seghers, 1968, p 19.

* نلمس في هذا الإشهاد وغيره (وبخاصة لدى موريس لوروا في الاتجاهات الكبرى في اللسانيات، وروبنز التاريخ الموجز للسانيات من أفلاطون إلى تشومسكي، وجورج مونان في تاريخ اللسانيات منذ نشأتها إلى القرن العشرين، وجون ليونز في اللسانيات العامة: مدخل إلى اللسانيات النظرية...إلخ) إلغاء أو تجاهلا لحلقة مهمة في تاريخ الفكر اللساني البشري، تمثلت في لسانيات اللغة العربية التي امتدت على مدى ثمانية قرون أو تزيد من الإنتاج والعطاء. والصورة الإيجابية عن الفكر اللغوي العربي عموما، وعن نحاة البصرة والكوفة خصوصا وردت عند «جوليا كريستيفا» في كتابها «اللغة هذا المجهول».

2 - يمكن أن تؤلف عديد البحوث والأطروحات حول المنجز اللساني الذي خلفه الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، ونظرا لتعدد المؤلفات وتنوع القضايا التي تناولها بالتحليل والنقد، رأينا ضرورة

## 2 - لمحة عن أبرز المؤلفات:

يتأسس المنجز اللساني للدكتور عبد الرحمن الحاج صالح على سلسلة من الدراسات والأعمال، الأصل في الكثير منها أنها عبارة عن أبحاث تم تقديمها في مؤتمرات وندوات علمية دولية، لاسيما المؤتمرات الدورية للمجامع اللغوية التي كان الدكتور عضوا فيها: كمجمع دمشق وبغداد وعمان والقاهرة، وجُلُّها تم نشره في دوريات علمية متخصصة. وكان آخرها من حيث المؤلفات: كتاب «**البنى النحوية العربية**» وهو الحلقة الرابعة في سلسلة علوم اللسان عند العرب، وعنوانه يتناص مع كتاب تشومسكي المشهور «البنى النحوية» (Syntactic structure)، الذي تضمن أفكارا ثورية في اللسانيات المعاصرة. ومن حيث المقالات يُعد العنوان الموسوم بـ: «**توهمات النحاة العرب بعد عصر الخليل وسيبويه**» آخر مقال للدكتور[1].

وعموما فإن المؤلفات المطبوعة التي وصلتنا إلى حد الآن، في حياة الدكتور وبعد وفاته، بلغت ثماني كتب، تشكلت من سلسلة علوم اللسان عند العرب، التي تضمنت على الترتيب الآتي «بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الجزء الأول والثاني» و «الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، الحلقة الثالثة» و «البنى النحوية العربية، الحلقة الرابعة»، بالإضافة إلى «بحوث ودراسات في علوم اللسان» و «السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة» و «منطق العرب في علوم اللسان»، وأطروحة دكتوراه دولة حصل عليها من السوربون بباريس سنة 1979، عنوانها: «علم اللسان العربي واللسانيات العامة»، وعنوان الأطروحة يتناص هو الآخر مع كتاب مشهور لـ»

---

الاقتصار في هذا المقال على قراءة أفقية غير قطاعية، لعينة من النماذج التي لها علاقة بالعنوان وبقناة النشر، والهدف من العدد.

1 - الكتاب من منشورات المجمع الجزائري للغة العربية سنة 2016، والمقال منشور في مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، العدد 23، جوان 2016. وينوي الباحث إجراء قراءة للكتاب والمقال في عمل مستقل لأنهما آخر إنتاج الدكتور.

شارل بالي» موسوم بـ: «اللسانيات العامة واللسانيات الفرنسية» «Lin-guistique générale et linguistique française».

نبدأ بالأطروحة، وهي كما يقر الحاج صالح في المقدمة، عبارة عن مستخلصات أو حصيلة جهود مضنية، استغرقت سنوات عديدة، أفضت إلى قراءة جديدة للمنجز اللساني الذي خلفه العلماء العرب في ميدان علوم اللسان العربي، وذلك في ضوء قراءة ناقدة للنظريات اللسانية الحديثة، تكشف عن القيمة العلمية للمفاهيم اللسانية التراثية لدى رواد الدرس اللغوي القديم من ناحية، وتُثبت أصالة إجراءاتهم وجدواها في التحليل المفهومي، التي اعتمدها النحاة العرب الأولون في استنباط الضوابط التي تحكم اللغة، وتفسر التنوعات الأدائية التي خرجت أو شذت عن المعيار. فالأطروحة في الواقع عبارة عن نظرية النظرية، أي نظرية ثانية **Métathéorie**.[1]

وفي سلسلة علوم اللسان العربي المشكلة من أربعة كتب، تطرق المؤلف في الجزء الأول والثاني[2] إلى النظرية الخليلية الحديثة وما تمخض عنها من بحوث تكنولوجية معاصرة جدا، كالعلاج الآلي للنصوص العربية، وعلم تعليم العربية، واصطناع الكلام المنطوق الآلي، ومعالجة أمراض الكلام. وهنا يقر الحاج صالح أن النظرية الخليلية تستجيب لما يتطلبه الحاسوب، وتوفر للحقول العلمية المذكورة آنفا تصورا علميا أوسع وأكثر كفاية لاستيفاء الظواهر اللغوية المختلفة. إضافة إلى ذلك عالج المؤلف قضايا لغوية راهنة تتعلق بواقع اللغة العربية ومستقبلها أبرزها: قضية المعجم العربي وإشكالاته، وقضية الترجمة والمصطلح، والكتابة العربية، والتعريب،

1 - لمزيد من المعلومات انظر مقدمة أطروحة الدكتوراه للدكتور عبد الرحمن الحاج صالح وعنوانها:
- Linguistique Arabe Et Linguistique Générale, Essai De Méthodologie Et D'épistémologie Du Ilm Al- Arabiyya.

2 - انظر، د.عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، 2، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر 2007.

وقضايا الصوتيات العربية والفنولوجية، وتطوير تعليم اللغة العربية وترقية استعمالها في المجالات الحيوية، والسعي لتوسيع انتشارها أمام مزاحمة اللغات الأجنبية، والأبعاد العلمية والتطبيقية لمشروع الذخيرة اللغوية المحوسبة آليا...وجل هذه القضايا يمكن إدراجها في صميم السياسة اللغوية وتخطيط المتن والمكانة، وهو حقل معرفي ينتمي إلى اللسانيات التطبيقية، ويشتغل على موضوع حرب اللغات وسبل الوقاية من الهيمنة اللغوية وموت اللغات وانقراضها[1].

أما العدد الثالث من سلسلة علوم اللسان عند العرب[2] فيتعلق تحديدا بلسانيات الخطاب، وقد شمل تحليلا لظواهر التخاطب، وأوصافه، وشروط حصوله. وتحدث عن دورة التخاطب عند علماء العرب والمشاركين فيها، والقرائن الحالية والمقامية، وكانت نظرية الوضع في مقابل الاستعمال الفكرة المركزية التي حاول المؤلف حملها على نظرية اللغة في مقابل الكلام عند سوسير. وقد بين من خلالها أن الفكر التراثي النحوي والبلاغي في تحليل اللغة وتفسير ظواهرها لم يقف عند حدود الشكل فحسب، بل تجاوز البعد اللفظي إلى الأبعاد الوظيفية الإبلاغية؛ فتحدث النحاة عن الكلام الذي تحصل به الفائدة، وعن معاني النحو وما يوفره للمخاطب من إمكانات فعلية وافتراضية على مستوى محور الاختيار والتركيب، ومن طرق متنوعة للتعبير عن المعاني المقصودة. فمادة الدراسة النحوية والبلاغية عندهم ليس الحكم وإنما الحديث من حيث هو تبادل لفظي ذو فائدة، يتم بين طرفين أساسيين هما المتحدث والمتحدث إليه.[3]

---

1 - جان لوي كالفي، حرب اللغات والسياسة اللغوية، تر: حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت 2008م.

2 - انظر، د. عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 2012.

3 - محمد صاري، محاولات تيسير تعليم النحو قديما وحديثا دراسة تقويمية في ضوء علم تدريس اللغات، رسالة دكتوراه دولة مخطوطة، ص157.

وفي كتاب «منطق العرب في علوم اللسان»[1] يتطرق المؤلف إلى الآليات العقلية التي اعتمد عليها النحاة العرب في بناء النظرية، واستنباط أصول العربية والاستدلال لها. ويثير سؤالا يتعلق بالوسائل العقلية التي استُعملت في النحو القديم، لماذا بقيت محفوفة بالغموض عند بعضهم؟ والحقيقة أن معظم الموضوعات التي عالجها المؤلف ههنا لها صلة قوية بعلم الأصول، وقد لا نبالغ إذا تم إدراجها في فلسفة اللغة واللسانيات الإدراكية[2]. نذكر منها على سبيل المثال: المفاهيم الأساسية للتحليل اللغوي العلمي، النحو العربي ومنطق أرسطو، التمثيل العلمي لمثل العربية وخصائص الاستدلال في علوم العربية، والقياس العربي عند النحاة الأولين وعند الأصوليين والمتكلمين... إلخ. وعموما فإن موضوعات الكتاب تغيَّت إثبات البعد العقلي في التفكير النحوي؛ وبينت أن النحو العربي منطق رياضي خاص، مستنبط أوضاعا ومقاييس من واقع الاستعمال، فهو ثمرة أصول عديدة. وإن وجود هذا الأثر المنطقي دليل على مكانة الجانب العقلي فيه إضافة إلى الجانب النقلي، وقد أصبح هذا الجانب ضروريا في البحث اللساني عند التحويليين، لأنه أداة أصيلة من أدوات بناء العلم، بدونه يتحول علم النحو إلى مجرد جمع وتصنيف.

---

1 - انظر، د. عبد الرحمن الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر 2010.

2 - ويطلق عليه أيضا العلوم الإدراكية أو العرفانيات على وزن التركيبيات والدلاليات والتداوليات، وهي كما نعلم حقل معرفي مازال في طور التشكُّل والتكوين، لين العود طري الجانب، موضوعه إدراك الإدراك، وفهم الفهم، ومعرفة كيفية معالجة الذهن للمعلومات وفهم الفضاءات الذهنية، وبنية اللغة وتمثلها بدلا من البحث في القدرة على استعمالها. وبمعنى آخر: كشف الذهني الموغل في التجريد، إنتاجا واستقبالا، تركيبا وتفكيكا. انظر موضوعي اللغة والعقل، واللغة في الدماغ، في الموسوعة اللغوية لـ: ن.ي. كولنج، ترجمة محي الدين حميدي وعبد الله الحميدان، المجلد الثاني، النشر العلمي، جامعة الملك سعود، الرياض 2000م.

وفي كتاب «السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة»[1] أثبت المؤلف أن تدوين اللغة بالسماع المباشر من أفواه الناطقين بالعربية فكرة سابقة في تاريخ المدونات اللغوية الحية، تؤكد أن العربية قامت على وصف أمين لحالة اللغة كما هي في المناطق التي لاحظ العلماء أن أهلها يستعملون في كلامهم السجل الذي اعتبرته الجماعة اللغوية السائدة سجلا ممثلا للغتها الرسمية، وهو عند التأمل اختيار منهجي يبرره علميا المبدأ اللساني السوسيري القاضي بأسبقية المنطوق على المكتوب، وأولوية الدراسة الآنية على الدراسة التاريخية[2]. ثم حاول المؤلف أن يبين فساد الاعتقاد السائد لدى البعض بوجود لغة مشتركة[3] إلى جانب اللهجات المحلية؛ خطب بها الخطباء، وشعر بها الشعراء، ونزل بها القرآن. ويزعمون أنها ( أي اللغة المشتركة) لم تكن لغة تخاطب للناس في حياتهم اليومية، ولم تكن سليقة يتكلمونها دون شعور بخصائصها[4]، وحجة المؤلف أن تصفح النصوص، والنظر في المقاييس التي احتكم إليها العلماء في الأخذ عن القبائل زمانا ومكانا، والتحريات الميدانية الواسعة النطاق التي قام بها المتحرون، والأماكن التي تجولوا فيها، وذكر أوصافهم، وتجريح أقوالهم، وعموما منهجية التحري اللغوي الميداني والآليات التي تم توظيفها، تعارض الرأي وتبين فساد هذا الاعتقاد، وتظهر أنه افتراض أو تخليط وأوهاما.

1- انظرد. عبد الرحمن الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر 2007.

2- حسين الواد، ملامح من البحث اللغوي في تونس في الثلث الأخير من القرن العشرين، المجلة العربية للثقافة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، العدد 42، مارس 2002م، ص135.

3- انظر، د. عبد الرحمن الحاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، الباب الثاني.

4- إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ط9، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1995م، ص43.

وفي كتاب «بحوث ودراسات في علوم اللسان»[1] الذي تضمن دراسات في تاريخ علم اللسان البشري، والتي شكلت مدخلا تاريخيا للسانيات الحديثة، نقف على بحوث معمقة، تُظهر ملامح التفكير اللساني الرصين لدى الحاج صالح. وميزة هذا الكتاب تكمن في التقويم الموضوعي، والقراءة التشريحية الناقدة، أو ما يمكن تسميته بـ: «النقد اللساني»؛ فقد سعى المؤلف بالاعتماد على المقارنة الدقيقة إلى توضيح قيمة كل مفهوم أو فكرة أو نظرية في التفكير اللساني بذكر ما لها وما عليها. كما تطرق المؤلف إلى لسانيات القرن العشرين، نشأة وتطورا. وكانت اللسانيات الآنية مع فرديناند دي سوسير وأتباعه، الذين أطلقوا على مذهبهم

في النصف الثاني من القرن العشرين اسم « البنيوية»[2]، آخر محطة له في التقويم[3]. وألحق بهذه البحوث دراسات، وبعض التعليقات باللغات الأجنبية الثلاث الفرنسية والإنجليزية والألمانية، تضمنت ملخصا لأطروحة الدكتوراه، وأعمالا مخبرية تبين القيمة العلمية للدراسات الصوتية عند العرب، لاسيما مفهوم الحركة والسكون. هذه نبذة مختصرة جدا عن مؤلفات الدكتور حاج صالح، التي تُظهر بوضوح تنوعا وثراء في الأفكار اللسانية التي ناقشها. ونستشرف أن تشكل موضوعاتها أطروحات وقضايا خصبة للبحث والدراسة، ونتوقع أن تستفيد منها أجيال والأجيال.

1 - انظر، د. عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر 2007.

2 - د، عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر2007، ص6.

3 - المتأمل في النقد اللساني لدى الحاج صالح الذي تناول موضوع تاريخ التفكير اللغوي، يلاحظ خصوبة في الطرح، وثراء في المعالجة تذكرنا بالمؤلفات الرائدة التي أرّخت للسانيات مثل: الاتجاهات الكبرى في اللسانيات لموريس لوروا، والتاريخ الموجز للسانيات من أفلاطون إلى تشومسكي لروبنز، واتجاهات البحث اللساني لميلكا إيفيتش، وتاريخ اللسانيات منذ نشأتها إلى القرن العشرين لجورج مونان، واللسانيات العامة مدخل إلى اللسانيات النظرية لجون ليونز... إن انشغال الدكتور بجمع أبحاثه ودراساته حتى آخر يوم من حياته حالت دون مواصلة المدخل التاريخي النقدي للسانيات الحديثة ليشمل كل النظريات وخاصة مجال الدلاليات والتداوليات.

## 3 – نماذج من التفكير اللساني عند الحاج صالح:

أما عن ملامح الفكر اللساني وما يتميز به خطاب المؤلف من خصوصيات في النظر، والتفكير، والتعبير، والتقويم، فسنكشف عن كفايتها المعرفية والمنهجية والتفسيرية، وعن مدى ما تحمله من بصمة الأصالة والجدة والروح العلمية، وذلك من خلال التطرق إلى عديد القضايا التي ناقشها في أبحاثه ودراساته، والتي استلهمت أصالتها من التراث العربي، واستمدت معاصرتها مما توفر للأستاذ من اطلاع واسع عميق على أحدث المذاهب والنظريات، نتناول منها تحديدا العناوين الآتية:

**3 – 1 – هناك تراث وتراث**[1]: رغم وجود تيار أو اتجاه يدعو إلى التخلص من النظرة التجزيئية الشائعة والمنتشرة بين الباحثين عن التراث النحوي والبلاغي والأصولي...والتخلي عن تقسيمه إلى «مناطق» أو «قطاعات» متمايزة؛ قطاع مقبول يستحق الدرس، وآخر مردود لا يستحق الدرس، قطاع حي نربطه بحاضرنا، وآخر ميت نقطع صلاته، لأنها نظرة خالية من القيمة العلمية، وتتخذ مواقف إيديولوجية من التراث في اعتقاد بعضهم،[2] فإن للدكتور الحاج صالح نظرة أخرى في التراث؛ فهناك تراث وتراث!

فالتراث الذي تعلق به، ودعا معشر الباحثين إلى الحفر والتنقيب في خطاباته، هو التراث العلمي اللغوي الأصيل، الذي تركه أولئك العلماء المبدعون الذين عاشوا في زمن الفصاحة اللغوية الأولى، وشافهوا فصحاء العرب، وقاموا بالتحريات الواسعة النطاق للحصول على أكبر مدونة لغوية شاهدها تاريخ العلوم اللسانية. وأما الذين جاءوا من بعدهم فقد كانوا عالة عليهم، فبعضهم ضيق حدود النحو الواسعة، واستبدلوا مفاهيم القدماء الإجرائية النشطة بمفاهيم أخرى جامدة تأملية كما يقر. وينطلق

1 - د، عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص168 – 172.

2 - انظر الحوار الذي أجراه الدكتور العمري وآخرون مع الدكتور طه عبد الرحمن أستاذ المنطق وفلسفة اللغة بكلية الآداب بالرباط، المنشور في مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، ص 126.

د.عبد الرحمن الحاج صالح في قراءته للتراث، وتأصيل أفكاره من منطلقين أساسيين هما:

**أولا** – لا يفسر التراث إلا التراث، ومن الخطأ أن نسقط على التراث مفاهيم وتصورات دخيلة تتجاهل خصوصياته النوعية، فلا يفسر كتاب «سيبويه» إلا كتاب «سيبويه»، بمعنى أن نصوص الكتاب يفسر بعضها بعضا، « فالمسند والمسند إليه عند سيبويه غير المسند والمسند إليه عند المتأخرين، وهما غير المبني والمبني عليه...والكلمة عند سيبويه غير الكلمة عند ابن مالك ومن اتبعه، وكذلك هو الأمر فيما يخص لفظة «اللغة» و«الكلام» وغيرهما من الألفاظ»[1]. ويعلق الدكتور الحاج صالح على عبارات سيبويه: (على غير ما وضعته العرب)، (هو من اسمه)، (وليس من اسمه) أو (في موضع ما هو من الاسم) أو (داخل في الاسم)...إلخ بالقول: فقد فهم هذا ابن السراج وشيخه المبرد وتلاميذه مثل السيرافي وغيره، إلا أنهم لم يستنتجوا من هذا ما يترتب عليه من الانتظام بين مستويات اللغة. وأما المتأخرون من النحاة فلم يدرك أكثرهم المقصود من هذه العبارة الأخيرة.[2] وإذا كان الأخفش والمازني والجرمي والمبرد...لم يستنتجوا فإن أكثر النحاة المتأخرين في منظور الدكتور لم يدركوا!

**ثانيا** – أن التراث العربي في العلوم الإنسانية عامة واللغوية على الخصوص ليس طبقة واحدة من حيث الأصالة والإبداع، ولذا اتجه الحاج صالح إلى إعادة قراءة التراث الأصيل والبحث عن خباياه، لاحبا للقديم في ذاته، ولا محافظة من أجل المحافظة، ولكن وعيا بقيمة المنجز، وبطبيعة الطفرة التلقائية المفاجئة التي أحدثها «سيبويه» وشيوخه وتلاميذه في تاريخ علوم اللسان، والتي أظهرت لنا القديم جديدا والجديد قديما[3].

1 - د، عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص183.

2 - د، عبد الرحمن الحاج صالح، البنى النحوية، ص17.

3 - د، عبد الرحمن الحاج صالح، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، وقائع ندوة تقدم اللسانيات في الأقطار العربية، ط1، دار الفكر الإسلامي، المغرب 1987.

وفكرة التقسيم النحوي والبلاغي إلى مناطق أو قطاعات متمايزة عند الدكتور الحاج صالح، الاعتبار فيها بالنظر إلى الأصالة والإبداع، لا بالنظر إلى قطاع مقبول يستحق الدرس وآخر مردود لا يستحق الدرس، فكل التراث في الواقع حقل للفحص وقابل للدراسة ولكن هناك فرق بين دراسة النسخة الأصلية ودراسة نسخة شارحة أو مصورة أو محرفة. وفي هذا السياق يرى الدكتور الحاج صالح أن أكثر المفاهيم اللغوية لم يتغير لفظها عند المتأخرين، وإنما تغير محتواها، ومن ذلك على سبيل المثال مصطلح: «لفظة» و «كلمة» و «قياس» و «باب» و «حد» و «مثال» و «بناء» و «أصل» و «كلام» و «لغة»... إلخ.[1]

## 3 – 2 – المعجم الاصطلاحي وكيفية تحديده للمفاهيم:

ليس من السهل إجراء عملية مسح للثبت الاصطلاحي الذي وظفه الدكتور الحاج صالح في مناقشة القضايا المختلفة المبثوثة في ثنايا مؤلفاته، والمتأمل في أبحاثه ودراساته يعثر على جهاز مفاهيمي ثري ومتنوع، يوحي أن التفكير العربي أفرز نظرية شمولية في الظاهرة اللغوية، مست مفاهيمها جميع المستويات اللغوية الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية... ومن دون شك فإن هذا الجهاز يتشكل من مادة خصبة، تصلح لإعداد دراسة أو أطروحة مستقلة تكشف عن خصوصياته. ولعل أبرز ما يتميز به الدكتور الحاج صالح في تعامله مع المفاهيم اللسانية التراثية والمستحدثة فهما وتقويما ما يلي:

- أن تحديده للمفاهيم له وجهة علمية تَنْفُر من التعميم وتغرق في التدقيق والتأصيل.

- أن أسلوب عرضها في الكتابة اللسانية يتأسس على فكرة حمل مفهوم على مفهوم آخر على شكل ثنائيات متقاربة أو متقابلة أو متضادة، ونجاعة

1- د، عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص 178، 183.

هذا النوع من العرض في عمليتي التوصيل والترسيخ معلومة لدى الدارسين والمدرسين.

ومن ينظر في أبحاثه يلاحظ أن للحاج صالح طريقة متميزة في ضبط المفاهيم وتحديد ماهيتها، يبدو ذلك من خلال عينة من النماذج، نذكر منها على سبيل المثال كيفية تحديده لمفهوم «الكلام»، و «الأصل في مقابل الفرع» و «الحركة في مقابل السكون». فقد كشفت عملية الاستقراء للأمثلة التي ورد فيها مفهوم الكلام عن وجود ثلاثة معاني، ترد في أسيقة متنوعة، تضمنت عبارات متقاربة ومتباينة منها قول القدماء: «هذا من كلام العرب» أو «ليس من كلام العرب»، و»كلام العجم»، « وكثير في كلام طيء»، «لأن هذا أكثر في كلامهم وهو القياس»، «فهو قبيح لا تكلم به العرب»، «لا يكون الكلام إلا من أصوات تامة لتفيد معنى»، و «كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه» فهو كلام و» كُلموا بكلامهم وجاء القرآن على لغتهم» و «الكلام المستغنى الذي يحسن السكوت عليه»[1]... يفكك الدكتور الحاج صالح هذه العبارات، ويستنبط منها ثلاثة مدلولات متقاربة:

**أولها** – الإشارة إلى مجموع ما يتكلم به قوم، أو الطريقة الخاصة بقوم في الكلام، وهذا التحديد يقابل مفهوم اللسان أو اللغة بمعناها الحديث.

**ثانيها** – وهو أهم هذه المعاني، كما يقر الدكتور، ويعني الخطاب أو الحديث أي الكلام الحاصل بالفعل بين المتخاطبين، ويقابل Discours، ويطلق عليه أيضا Enonce بالفرنسية، وهو موضوع تختص به البلاغة، ويدخل في جزء كبير من النحو. وجوهر كتابه الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية قائم على هذا المعنى كما يشير المؤلف.

**ثالثها** – الكلام كوحدة خطابية يتوفر فيها شرطان هما: التركيب والإفادة، وهو الكلام «المستغني» عند سيبويه، والجملة المفيدة عند من جاء بعده،

---

1 - لمزيد من المعلومات انظر د، عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، ص12، 13.

وهي وحدة خطابية مفيدة يقف النحو عندها، ولا يتجاوز مستواها التركيبي مع ما تدل عليه من معان[1].

وعند تحديده لمفهوم «الأصل» يربطه الدكتور الحاج صالح بكلمة نظير أخرى ظهرت بعد سيبويه، وتكثر في حديث النحاة، وتكوّن مع مصطلح «الأصل» زوجا متضادا، هي لفظة «الفرع»[2]، ثم يشير إلى ضروب من الكلام والعناصر اللغوية التي قسمها القدماء إلى أصول وفروع. وتعد هذه الثنائية اللغوية، في نظر المؤلف، من المفاهيم المنهجية في النظرية اللغوية العربية، لأن وجودها يطَّرد في أبواب الصرف والنحو والدلالة والأصوات والبلاغة... ومن خلالها يظهر أن للغة مراتب عند النحاة، وبعض عناصرها يبدو أنه أسبق من بعض. فالمفرد أصل والجمع فرع عليه، والمذكر أصل والمؤنث فرع عليه، والنكرة أصل والمعرفة فرع عليها، والمبني للفاعل أصل للمبني للمفعول...إلخ[3]، قال سيبويه: «واعلم أن الواحد أشد تمكنا من الجمع لأن الواحد الأول» وقال أيضا: « وإنما كان المؤنث بهذه المنزلة ولم يكن كالمذكر لأن الأشياء كلها أصلها التذكير ثم يختص بعد...فالتذكير أول وهو أشد تمكنا كما أن النكرة هي أشد تمكنا من المعرفة لأن الأشياء إنما تكون نكرة ثم تُعرَّف، فالتذكير قبل...». ويستنبط الحاج صالح من هذه الأقوال وغيرها أن الأصل هو:[4]

1 - المرجع نفسه، ص 13، 14.

2 - لمزيد من المعلومات انظر، عبد الرحمن الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، ص 139، 140.

3 - ما يلاحظ أن فكرة الأصلية والفرعية معطى لساني كوني، يتوزع على جميع مستويات التحليل اللغوي، ويرد في جميع أبواب النحو، فللعمل النحوي أصل، وللإعراب أصل، وللبناء أصل، ولكل باب من أبواب النحو قاعدة عامة تسمى الأصل، وللأدوات النحوية المتفقة في العمل أصل واحد يسمى أصل الباب... لمزيد من المعلومات حول فكرة الأصل والفرع انظر، د. حسين الملخ، نظرية الأصل والفرع للنحو العربي.

4 - د، عبد الرحمن الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، ص 144.

أ- العنصر أو الوحدة أو الصيغة أو الحدث... الذي يُؤخذ منه عنصر آخر بزيادة علامة تُحَوِّله إلى وحدة أخرى، وتكون بذلك فرعا عن الأول، وهذا هو معنى التفريع.

ب- العنصر اللغوي العاري من كل زيادة، وكلما كان كذلك كان أخف وأقل كلفة على المتكلم، والعكس صحيح.

ج- دائما ما استمر وجوده لفظا و/ أو معنى إما في فروعه أو كقانون ولا يتخلف.

د- ما يكون أصلا مفترضا لفروعه الموجودة في الاستعمال نحو (بَيَعَ من باع، وقَوَلَ من قال)، أما هو فوجوده افتراضي، ولم يُسمع في الاستعمال. وقد يكون الأول في المرتبة دون أن تكون فروعه متفرعة عنه لفظا مثل الاسم بالنسبة للفعل.

وتظهر فكرة الثنائيات اللغوية، وحمل مفهوم على مفهوم آخر يجاوره أو يقابله أو يناقضه لدى المؤلف في وصفه للنظرية الصوتية العربية، حيث يستنبط بعد تشريح مُطَوَّل لأقوال العلماء وعلى رأسهم، الخليل وسيبويه وابن سينا والفارابي والرماني وابن جني...إلخ، أن الرؤية الصوتية العربية في منظور الحاج صالح رؤية حركية، نستطيع من خلالها تبين لماذا سميت الحركة حركة، وتَفَهُّم كثير من الظواهر اللغوية؛ فللحركة، في منظور عبد الرحمن الحاج صالح، وظيفتان تنفرد بهما دون الحروف الجامدة واللينة: أولهما تمكين الناطق من إحداث الحرف والنطق به، وثانيهما تمكينه من الانتقال من مخرج حرف إلى مخرج حرف آخر. ويدعم المؤلف نظرية الحركة في الكلام العربي، القائمة على الدفعة والنقلة العضوية والهوائية التي تهيئ المتكلم لما بعدها، إذ يحتاج إليها للانتقال من مخرج حرف إلى مخرج حرف آخر، ومن كلمة إلى كلمة أخرى؛ فهي إطلاق بعد حبس بعكس السكون الذي هو وقف، لا يستلزم الانتقال إلى حرف آخر، يدعم ذلك بأقوال غاية في الدقة والوضوح للرماني منها: «...الحروف تتقوم بالحركة على ما يمكن النطق به

ولا تتقوم بالحرف من الياء ونحوها، ويُتوصل بالحركة إلى النطق بالحرف ولا يتوصل بالحرف إلى النطق بالحرف»، وفي مقابلة للحركة بالسكون يقول: «... لأن الحركة تمكن من إخراج الحرف والسكون لا يمكن من ذلك»[1].

إن سرد مزيد من الأمثلة عن الجهاز المفاهيمي الشائع في مؤلفات الدكتور الحاج صالح، ومنه: (الإبدال والتعاقب، والاطراد والشذوذ، والباب والأصل، والصورة والمادة، والعامل والمعمول، واللفظة الاسمية والفعلية، والوضع والاستعمال، والنحو العلمي والتعليمي، والمشافهة والتحرير، والوضع والموضع، والتحليل الأفقي والعمودي...) لا يزيد الباحث إلا قناعة بأن فكرة الثنائيات اللغوية آلية مركزية لأمن اللبس وعدم التخليط بين المفاهيم، وقد لا أكون مبالغا إذا توقعت أن عددها المتناثر في أبحاثه ودراساته يمكن أن يشكل معجما لسانيا مستقلا متخصصا في الثنائيات اللغوية.

## 3 – 3 – نظرية الموضع:

تعد فكرة الموضع أو المواضع أو المواقع، كما يطلق عليها بعض من جاء بعد سيبويه، القلب النابض للنظرية النحوية العربية[2]، ومن يدرك فحواها يفهم الأبعاد العلمية لنظرية العامل النحوي. وعين الموضع كما استنبطه الدكتور الحاج صالح من أقوال الرماني والمبرد وابن جني وأبي علي الفارسي... يشير إلى[3]: موقع الوحدات أو العناصر اللغوية في تسلسل الكلام ومحيط خاص، حيث تتوالى على ترتيب وهيئة معينة، وبتعبير آخر: الحيز المكاني أو المواقع التي يمكن أن يشغلها كل واحد من العناصر اللغوية، أو فئة العناصر أو الوحدات التي يمكن أن تحتل الموقع نفسه. فبعض العناصر قابل للوقوع

1 - لمزيد من المعلومات انظر د، عبد الرحمن الحاج صالح، موضوع الحركة والسكون عند الصوتيين العرب وتكنولوجيا اللغة الحديثة، ص 175 – 201.

2 - لمزيد من المعلومات حول نظرية المواضع انظر الأطروحة القيمة الموسومة بنظرية المواقع في النحو العربي، إعداد د، على المعيوفي، إشراف العالم أ.د.أبو أوس إبراهيم الشمسان، نوقشت بقسم اللغة العربية، جامعة الملك سعود، سنة 2009.

3 - د. عبد الرحمن الحاج صالح، البنى النحوية العربية، ص 61 – 68.

موقع عناصر أخرى من نفس الجنس، وتأدية ما تؤديه، وبعضها غير قابل، ولو وضعتها موضع فئة ليست من نفس القبيل لم يجز. وما يسميه الرماني بقسمة المواقع يطلق عليه في اللغات الأجنبية **Distribution**، وهو، كما يقر المؤلف، مفهوم منهجي لجأ إليه «بلومفيلد» لاستخراج الوحدات الدالة الصغرى بطريقة موضوعية، وإثبات هويتها وتصنيفها. «ومن خصائص هذه المواقع، عند العرب، أن اللفظ الواحد قد يتغير مجراه بانتقاله من موضع إلى موضع آخر، فيصير بذلك فردا من جنس آخر». ويؤكد ابن جني هذه الفكرة بقول أبي علي الفارسي: «يجوز أيضا أن تُخرجه [أي اللفظ أو العنصر] من جنس إلى جنس آخر إذا أنت نقلته من موضعه إلى غيره». وواضح أن هذه الفكرة التراثية تتقاطع مع مبدأ من المبادئ التي أعلن عنها سوسير لاحقا في تحليله المشهور لثنائية المحورين: التركيبي في مقابل الاستبدالي عند نسيج النص وإنتاج الكلام.

وبعد المقارنة والتحليل لمدلول الموقع في الكلام كما ورد في اللسانيات الأمريكية (عند بلومفيلد وتلميذه كينيت بايكK.Pike ) يستنتج الدكتور الحاج صالح أن للفظة «موضع» عند سيبويه مدلولا أوسع وأدق من مجرد الموقع المحسوس؛ فليس بالضرورة أن يكون الموضع موقعا محسوسا للوحدات اللغوية، فقد يكون موضعا في البنية لا في تسلسل الكلام، ومحتوى الموقع قد يكون خاليا. فالموضع إذا «هو الفضاء الاعتباري الذي لا يظهر في درج الكلام إلا إذا دخلت فيه، وشغلته وحدة لغوية مهما كان محتوى الكلام المنطوق، وبشغلها لهذا الفضاء تكشف هذه الوحدة الملفوظة عن وجود الموضع في بنية من الكلام.

وقد لا تدخل فيه، ولا تظهر فيه أحيانا أخرى، ولهذا يضطر اللغوي إلى تقديرها لإظهار الموضع»[1]. كما يتبين من الرسم البياني الآتي:

1 - د، عبد الرحمن حاج صالح، البنى النحوية العربية، ص68.

| زيادة قبل الأصل | | الأصل | | زيادة بعد الأصل | |
|---|---|---|---|---|---|
| بـــ | الـــ | كتاب | ـــــُـــ / ـــــ ـــُـــ | زيد | المفيد |
| ⟶ | ⟶ | ⟷ | ⟵ | ⟵ | ⟵ |
| 2 | 1 | 0 | 1 | 2 | 3 |
| حرف جر | أداة التعريف | نواة اسمية | علامة إعراب | مضاف إليه | صفة |

وللإشارة فإن المواضع المثبتة حول النواة يمينا وشمالا تدخلها الوحدات أو العناصر اللغوية الزائدة، وتخرج منها بعمليات الوصل، وقد تكون فارغة أو خالية من العنصر لأن الموضع شيء وما يحتوي عليه شيء آخر ( الموقع) وهذا الخلو من العنصر مع بقاء أو ثبات الموضع الاعتباري (الافتراضي) هو ترك للعلامة وخلو منها، ويطلق عليها الدكتور الحاج صالح مصطلح العلامة العدمية (أي غير الظاهرة، أو الموضع الصفر)، ويرمز لها بالرمز ∅

## 3 – 4 – في النقد اللساني:

للدكتور عبد الرحمن الحاج صالح في مشروع قراءة التراث وتقويم المنجز اللساني الغربي روح علمية لا تقنع بالشرح والوصف، وتكمن ميزة دراساته وأبحاثه عن غيرها من الكتابات اللسانية العربية الحديثة في ملازمتها للنقد البناء، والتقويم الموضوعي للقديم والحديث، وذلك بالاعتماد على المقارنة الدقيقة لكل مفهوم، أو فكرة، أو منهج، أو نظرية؛ فكل مقولة لسانية لا

يتم إقرارها إلا بعد اختبار استدلالي، يمعن في التقصي، ويدقق في الائتلاف والاختلاف، ويُثَبت في الوجوه والفروق. وللمؤلف موهبة خاصة في الكشف عن الجدة والتنوع لدى القدماء، ومواطن الخطأ والتبعية عند المتأخرين والمحدثين. وتحمل مستخلصاته عن التراث دلالة علمية تجدد الاعتبار للمنجز اللساني التراثي، وتثبت التفوق النظري والمنهجي للنحاة القدامى مقارنة باللغويين العرب المحدثين. وتتجلى الروح النقدية والتفتح الذهني عند الحاج صالح من خلال عديد الأمثلة المتناثرة في ثنايا أبحاثه ودراساته، والتي تتميز بلغة علمية خاصة، وبصمة أسلوبية تتخللها أحيانا هزة إنشائية مقصودة، لا يسع المقام لذكرها تفصيلا، ولكن سنكشف عن شيء منها من خلال بعض النماذج.

ففي حديثه عن مفهوم التفريع في النظرية النحوية العربية يصرح المؤلف أن قيمته قلَّما انتبه إليها اللغويون المحدثون؛ فقد تناوله النحاة بعمق لأنه مركزي في التأسيس للنظرية، بُني عليه لا النحو فحسب بل علوم العربية كلها، وهو مرتبط، كما يقول، بالحدود الإجرائية أو المثل أو الأنماط كما يطلق عليها البعض. « والعجيب أنه قد ظهرت في العشريات الأخيرة نظريات بناها أصحابها على مفهوم التفريع أو التوليد، وردوا على القائلين بأن الدراسة العلمية للغة ينبغي أن تقتصر على الوصف بدون تعليل. وقد توصل أصحاب هذا المذهب الآن إلى إعادة الاكتشاف للعديد من المفاهيم التي عرفها العلماء العرب الأولون ولم يدرك فحواها المتأخرون»[1].

وفي قراءة ناقدة لمستويات التأدية اللغوية، وعفوية المنطوق مقارنة بالمكتوب يصرح بلغة فيها شيء من التهويل التنبيهي فيقول: «ابتلينا معشر العرب بكارثة عظيمة منذ أن قرر البلاغيون المتأخرون أن ما كثر على ألسنة العامة، وكان لذلك المعنى اسم استغنت به الخاصة عن هذا، فهذا يقبح استعماله لابتذاله. فهكذا أصبحت الفصحى لغة خواص، وأميت المئات

1 - د، عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص171.

بل الآلاف من الألفاظ والتراكيب الفصيحة التي نطق بها فصحاء العرب أنفسهم، لا لشيء إلا لاستعمال العوام لها واستغناء الخواص عنها»[1].

وفي سياق آخر يتعلق ببعض الدعوات التي تريد استبدال النحو التراثي بنحو جديد يعقِّب قائلا: «وقد أدت ببعض معاصرينا إلى الطعن فيما تركه لنا العلماء العرب، حتى الأولون الفطاحل منهم. فحاولوا أن يستبدلوا أوضاع النحو القديم بشيء تافه استعاروه من النحو التقليدي الأوربي، وما استبدلوا في الواقع إلا مصطلحا بآخر يقل عنه قيمة ومدلولا»[2].

وفي حديثه عن أهم الفوارق بين البراقماتيك والرؤية العربية للخطاب يلاحظ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح «أن الكثير من العلماء الغربيين يجعلون البراقماتيك ميدانا قائما بنفسه، ومن ثم جعلوه دراسة علمية تقابل التراكيب والدلالة [ التركيبيات والدلاليات]. وهذا صحيح من حيث إن الأدلة ومدلولاتها شيء واستعمالها شيء آخر، إلا أنهم جعلوا أيضا كلا من التراكيب والدلالة ميدانا قائما برأسه كما جاء في ثلاثية موريس. ولعلماء العرب نظرة أخرى هي أدق وأجمع لأنها لا تفصل بين الأركان الثلاثة...بل يجمعون بين التراكيب والدلالة، أي اللفظ والمعنى، وينظرون فيهما معا من جهتين: في الوضع وفي الاستعمال»[3]. وعلى هذا المنوال الذي جمع بين التحليل والتفسير والمقارنة والنقد جاءت قراءته للتفكير اللساني العربي والغربي. فهي من صميم «النقد اللساني».

ويدخل في هذا التوجه النقدي اللساني حديث الدكتور الحاج صالح عن أزمة اللسانيات العربية الحديثة؛ ففي أبحاثه لا نعثر على عنوان صريح ومستقل يناقش من خلاله أزمة اللسانيات العربية الحديثة كما هو الحال عند بعض اللسانيين العرب[4]، لكن القارئ المتتبع لبحوثه ومؤلفاته يستشف

1 - د، عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص 187، انظر الهامش رقم 14.

2 - المرجع نفسه، ص 178، الهامش رقم 1.

3 - د، عبد الرحمن الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، ص215.

4 - مثل «عقبات البحث اللساني العربي» لعبد السلام المسدي، و«أزمة اللسانيات واللسانيين في

وعيا واضحا بواقع البحث اللساني العربي وسلبياته. ومن مظاهر ذلك إشارته إلى أن كثيرا ممن كتب أو يكتب في اللسانيات ليسوا من فرسان الميدان، فبعضهم يمرق من اللسانيات؛ يَدْرُسها اليوم، ثم يتجرأ في اليوم الموالي على نقد كتب الأئمة والفطاحل من النحاة والبلاغيين كما ينتقد أي كتاب مدرسي لتعليم الصبيان؛ يفعل ذلك وهو قليل المؤونة، جاهل بالتراث، غير مدرك لمقاصد القدماء. وبعضهم يعرض اللسانيات الغربية على المثقف العربي وكأنها حقائق أو مسلمات، فلا يتنبه إلى أخطائها النظرية والمنهجية. وبعضهم يتعصب لمدرسة أو مذهب أو نظرية، فينظر في أبواب العلم وموضوعاته بنظارات أحادية اللون، صنعت في معامل البنيويين أو الوظيفيين أو التوليديين...ويتجاهل بقية الاتجاهات ويصادر أفكارها. ومن مظاهر الواقع اللساني السلبي أيضا الخلط بين المصطلحات الأصيلة ومصطلحات النحاة المتأخرين. وإن أي مجهود يبذل، في اعتقاده، لترقية لسانيات اللغة العربية، وتطوير البحث فيها يتجاهل التفكير اللساني في الحضارة العربية فمآله الفشل[1]. ومما سبق ذكره نستنتج أن النظرية النحوية العربية مرجعية أساسية في النقد اللساني العلمي عند الدكتور حاج صالح.

### 3 – 5 – الانشغالات التعليمية للنظرية الخليلية:

تعد اللسانيات التطبيقية في تعليم اللغات انشغال مركزي في أبحاث الدكتور الحاج صالح ودراساته، وقد اتضح له من خلال الخبرة الطويلة، والبحوث العلمية التي أطَّرها في هذا المجال، أن تطوير تدريس اللغة العربية ومضاعفة مردودها في الجانب التربوي، وترقية استعمالها في المجالات الحيوية رهين بتحديث مناهجها، وطرق تعليمها في ضوء المفاهيم الأصيلة للنظرية اللغوية العربية القديمة، مع ضرورة الاستفادة من المبادئ المستنبطة من

الوطن العربي» لمازن الوعر، «واللسانيات العربية الحديثة، دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية» لمصطفى غلفان، و«اللسانيات العربية المعاصرة، حصاد الخمسين» لسعد مصلوح...إلخ.

1 - د، محمد صاري، قراءة في الكتابة اللسانية العربية الحديثة، مجلة اللغة العربية وآدابها، المجلد 4، العدد 4، جامعة مؤتة، الأردن، تشرين الأول 2008.

النظريات اللسانية وتطبيقاتها المفيدة في التعليميات. فقد ظل يحث معشر الباحثين في اللسانيات التربوية، وأنصار النظرية الخليلية، على ضرورة إجراء بحوث ميدانية للكشف عن الوضعيات التعليمية، وتحليل الفعل البيداغوجي، وتفسير ما يحدث في الصفوف الدراسية؛ فلا تحديث للمناهج، ولا تطوير للطرائق، ولا تحسين في مضامين التدريس دون رصد موضوعي وتشخيص للواقع الذي هو عليه تعليمنا للغة العربية[1].

ومن أبرز المشاكل التي ظل الدكتور الحاج صالح ينبه إليها، هو وجود مستوى واحد من التعبير في تعليم العربية لجميع الفئات، أطلق عليه مصطلح التعبير الترتيلي أو الإجلالي، وهو تعبير يقتضيه المقام الرسمي كما هو الشأن في المحاضرات والندوات والخطب...إلخ. ويشير الدكتور ههنا إلى أن المعلمين والذين يشرفون على تكوينهم لا يعرفون من المستويات اللغوية إلا هذا الأسلوب الترتيلي الأدبي، وعليه فقد أهدروا المستوى العفوي وما يحتويه من إمكانات أدائية تتميز بالخفة والاقتصاد، مما أدى إلى تقليص استعمال العربية وابتعادها شيئا فشيئا عن الحياة اليومية، التي تحتاج إلى مستوى مستخف وعفوي من التعبير، يكثر فيه الحذف والإضمار والاختلاس للحركات، وغير ذلك مما هو ضروري في التخاطب اليومي. وفي هذا الصدد يقول: «لقد أصبح هم المعلم هو الإعراب والنطق الصحيح ببنية الكلمة، وأهملوا المستوى العفوي، وهو ما أجازته العرب من تسهيل للهمزة، وإدغام الكثير من الحروف بين كلمتين، وإخفاء الحركات واختلاسها، وتسكين بعض المتحركات، وحذف ما يستغنى عنه في الخطاب المرئي، وتَجَاهَل هؤلاء هذا المستوى المستخف من التعبير لشدة غيرتهم على الدقة اللغوية وصحتها، حتى أداهم ذلك إلى اللحن»[2]. وبناء على القول ينبه الحاج صالح على ضرورة إجراء بحوث ميدانية تكشف عن حقيقة المستوى العفوي المستخف وضبطه، ثم

1 - لمزيد من المعلومات انظر د، عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ص 190 – 204.

2 - لمزيد من المعلومات انظر د، عبد الرحمن الحاج صالح، المرجع السابق، ص 64 – 81.

إعطاء المربين الفرصة لدراسته وتدريسه لكي لا يقتصر تلقينهم على صحة التعبير وجماله، ويهدرون بذلك ما يتطلبه الخطاب اليومي من خفة واقتصاد في التعبير.

وفي ضوء النظريات اللغوية المتصارعة يدعو الحاج صالح إلى الحذر من التفضيل المطلق لمنهج أو اتجاه على اتجاه آخر، فالنظرية الخليلية لا تقف مع أنصار البنيوية في القول بأن السلامة النحوية أي الجانب الشكلي للغة هو المبدأ العام في تدريس اللغة العربية، ولا مع الوظيفية باعتبارها الملكة التواصلية **Compétence communicative** هي الشغل الشاغل، بل إنها تدعو إلى التركيز على الملكة التواصلية التي تتعلق بما تتيحه اللغة للمتعلم من طرق متنوعة للتعبير عن المعاني المقصودة، أي الجانب الوظيفي الإبلاغي، وعدم إهمال الملكة اللغوية **Compétence linguistique** التي تخص الصحة أو السلامة النحوية، لأن الملكة اللغوية التامة ملكة مركبة، تتشكل من القدرة على التصرف في بنى اللغة، والقدرة على الربط الوثيق بينها وبين الأغراض[1].

ويظهر تميز الحاج صالح وتفرده بآرائه النقدية السديدة من خلال حديثه عن إشكالية تيسير النحو مقارنة بالبدائل المقترحة التي تطرحها بعض النزعات في العالم العربي، فالآراء التي ذهب إليها بعض القدماء وكثير من معاصرينا أمثال: ابن مضاء، وإبراهيم مصطفى، وإبراهيم أنيس، ومهدي المخزومي، ومحمد عيد، وشوقي ضيف ومن دار في فلك أفكارهم، يعدها الدكتور الحاج صالح تشويها للروح التي بني عليها النحو العربي، وحطا من قيمة تصور علمائه، وطعنا فيما تركه المبدعون من النحاة الأوائل. وأزمة النحو التي تشكلت في الميدان التربوي التعليمي، في منظور الحاج صالح، لا تكمن في النحو ذاته من حيث هو علم، وإنما في تجاهل المناهج المدرسية للطرق الحديثة في الانتقاء والتخطيط والعرض والتوصيل، وإهمال التمرس

1 - لمزيد من المعلومات انظر د، عبد الرحمن الحاج صالح، المرجع نفسه، ص174 – 189..

اللغوي والجانب الترسيخي المنظم في تعليم العربية، واقتصار أكثر المربين والمعلمين على الأنواع القليلة من التمارين، لاسيما التحليلية منها القائمة على التعيين والتبيين والإعراب. والأكثر من ذلك كله هو اتخاذ النحو والصرف في صورتيهما النظرية البحتة، وسيلة مجردة من كل تكييف لإكساب المتعلمين الملكة اللغوية، وإعطاء هذا الجانب من القواعد النظرية والتعليق عليها حصة الأسد[1].

ومهما تعددت الأسباب فإن الخطأ قائم إذ لا يميز هؤلاء المصلحون والمجددون بين التعليم بهدف تأسيس معرفة علمية متخصصة، والتعليم بغرض خلق مهارات وكفاءة الأداء اللغوي. والذي يقصده الدكتور الحاج صالح من تعليم اللسان العربي بشكل عام هو إكساب المتعلم القدرة العملية لا النظرية على استعمال اللغة، وليس أن نجعل منه عالما متخصصا في علم النحو. ثم يدعو إلى ضرورة التمييز بين منهجين متباينين في الوسيلة والغاية، أحدهما نظري تجريدي محض يتمثل في النحو العلمي، والآخر وظيفي تداولي يتمثل في النحو التعليمي.

**3 – 5 – 1 – النحو العلمي والنحو التعليمي:**

نبه الدكتور الحاج صالح إلى الخلط الذي يحدث بين المفهومين وما يترتب عنه من تدهور في تدريس لا النحو فحسب بل العربية عموما[2]، للناطقين بها وللناطقين بغيرها. ومع ذلك يبقى اللبس قائما لدى البعض، حيث يقول وهو بصدد الحديث عن بعض معاصرينا الذين حاولوا استبدال أوضاع النحو القديم بشيء تافه استعاروه من النحو التقليدي الإغريقي واليوناني: «...كما حاولوا أيضا تبسيط النحو، وهذا دليل واضح على التباس المفهوم! إذ كيف يُبَسط النحو وهو القانون الذي بني عليه اللسان! ولا شك أنهم أرادوا تبسيط الصورة التي تعرض فيها القواعد على المتعلم. فعلى هذا ينحصر التبسيط

1 - المرجع السابق.

2 - د، عبد الرحمن الحاج صالح، البنى النحوية العربية، ص 273 – 287.

في كيفية تعليم النحو لا في النحو نفسه، لأنه علم محض، وهل يُعقل أن يُجحف بالعلم بحذف بعض قوانينه وعلله»!؟ فرؤية الحاج صالح لفكرة التيسير من خلال مضمون القول تشير إلى:

أ - أن النحو في حاجة ماسة إلى من ييسر أساليبه ويوضح طرق عرضه، وليس في حاجة إلى من يغير قوانينه الثابتة من حيث هي علم، أما التصور العلمي فهو قابل للتطوير لكن وفق الشروط التي يتطلبها العلم.

ب - أن النحو جهاز كامل، وأن حذف أي جزء منه يؤدي إلى تعقيده وربما إفساده. وما يلاحظ على فكرة الدكتور أنها تتقاطع مع رأي مشهور لـ «يلمسلافHjelmslev» يقول فيه: «إذا كنا نريد نحوا سهلا فلا توجد سهولة في النحو (بالطبع من حيث هو علم)، فالنحو هو النحو، وإن أي مجهود يبذل لجعله أكثر سهولة مما هو عليه، سوف يقود لا محالة إلى تحريف القواعد والقوانين، وهتك مبادئ ثابتة لها مصداقية في العلم»[1]، لأن النحو في أساسه صناعة تعين على اكتساب اللغة بعد أن ضاعت السليقة، ونجاحه في هذا المركب أمر لا يختلف فيه من يطلبون له اليوم مزيدا من النجاح[2].

## 4 – خاتمة:

هذه لمحة موجزة عن طبيعة الفكر اللساني وبعض خصوصيات الخطاب عند الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، دفعنا سياق الحال إلى الكشف عن ملامحه من خلال مسيرة علمية حافلة بالخصوبة والتنوع، كان لها الفضل في إغناء المعجم اللغوي بمفاهيم لها وزنها في لسانيات اللغة العربية، وفي تقويم التفكير اللساني البشري. فقد كشفت دراساته أن جهود علماء العرب على غير ما كان البعض يتصور ويتوقع؛ حيث أظهرت أن بدايات التفكير

1 - Louis Hjelmslev, Prolégomènes a une théorie du langage, les éditions de minuit, Paris1971, P179 .

2 - عباس محمود العقاد، أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، دار المعارف، ط2، القاهرة 1970، ص 50.

اللساني التراثي لا تختلف عن نهاياته معرفيا ومنهجيا، وبدا لنا الفكر القديم، في ضوئها جديدا، بل ومحتويا على ما ليس في الحديث[1]. وبصورة عامة، فإن أبحاث الدكتور الحاج صالح أثبتت أن وَضْع الفكر اللغوي التراثي على محك أحدث المناهج اللسانية لا يزيد البحث اللساني العربي في الواقع إلا وعيا بأهمية المنجز، وقناعة بالمقدرة المنهجية والمعرفية والتعليلية للذين أبدعوه. فقد كان لأفكاره الثورية فضل جلي في:

- إسهامها في التعريف بالتراث اللغوي الأصيل وإحيائه وتسهيل الاطلاع عليه لاسيما تراث الخليل وشيوخه وتلاميذه، وبالتالي إثبات الحلقة المفقودة التي تجاهلها الغربيون عندما أرخوا للفكر اللساني البشري.

- حث معشر الباحثين العرب على ضرورة الاهتمام بشخصيات علمية عربية رائدة، وإجراء مراجعات لسانية للمنجز اللغوي التراثي بعد التحكم في مناهج القدماء والتمكن من نظريات المحدثين.

- إثبات أن المقدرة النظرية والمنهجية التي كانت للنحاة العرب القدامى تفوق بكثير مقدرة اللغويين العرب المحدثين رغم طول المسافة بيننا وبينهم.

- تحسيس الباحث العربي في علوم اللسان بالكفاية الوصفية والتعليلية والتعليمية للنظرية النحوية التراثية، وإقناعه بتطبيقاتها المفيدة في حل مشكلات لغوية وتربوية راهنة.

- تفسيرها لكثير من المفاهيم النحوية والبلاغية القديمة، واقتراحها لمصطلحات جديدة، وإحيائها لمصطلحات لسانية تراثية.

- إثبات أن المفاهيم التي تأسست عليها النظرية اللغوية العربية القديمة ليست غريبة أو دخيلة أو ملفقة على الدرس اللغوي كما يزعم كثير من المفتونين بالمناهج اللسانية الغربية.

---

1 - محمد الشاوش، تركيبية النص، العلاقات النسقية بين الجمل، رسالة دكتوراه دولة مخطوطة، إشراف د. عبد القادر المهيري (انظر خاتمة البحث)، وقد تم طبعها تحت عنوان: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية- تأسيس نحو النص.

- تنبيه الباحثين العاملين في حقل التربية والتعليم إلى ضرورة التمييز بين النظرية النحوية العربية الشمولية وتطبيقاتها التربوية.

## المصادروالمراجع:

1 - د. عبد الرحمن الحاج صالح:

2 - المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، وقائع ندوة تقدم اللسانيات في الأقطار العربية، ط1، دار الفكر الإسلامي، المغرب 1987.

3 -السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، منشورات المجمع الجزائري،2007.

4 - بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، 2، منشورات المجمع الجزائري 2007.

5 - بحوث ودراسات في علوم اللسان، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر 2007.

6 -منطق العرب في علوم اللسان، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر2010.

7 -الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، منشورات المجمع الجزائري 2012.

8 - البنى النحوية العربية، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر 2016.

9 -د، إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، ط9، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1995م.

10 - جان لوي كالفي، حرب اللغات والسياسة اللغوية، تر: حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت 2008م.

11 - د، حسين الواد، ملامح من البحث اللغوي في تونس في الثلث الأخير من القرن العشرين، المجلة العربية للثقافة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، العدد 42، مارس 2002م.

12 - عباس محمود العقاد، أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، دار المعارف، ط2، القاهرة 1970.

13 - د، محمد صاري، محاولات تيسير تعليم النحو قديما وحديثا دراسة تقويمية في ضوء علم تدريس اللغات، رسالة دكتوراه دولة مخطوطة.

14 - قراءة في الكتابة اللسانية العربية الحديثة، مجلة اللغة العربية وآدابها، المجلد 4، العدد 4، جامعة مؤتة، الأردن، تشرين الأول 2008.

15 - ن.ي. كولنج، الموسوعة اللغوية، ترجمة محي الدين حميدي وعبد الله الحميدان، المجلد الثاني، النشر العلمي، جامعة الملك سعود، الرياض 2000م.

16 - Abderrahman Hadj-Salah, Linguistique Arabe Et Linguistique Générale, essai de méthodologie et d épistémologie du ilm-arabia; Tome 1,2, publication de l'académie algérienne de la langue arabe, 2011.

17 - G. Mounin : Clefs pour la linguistique, Paris, Seghers 1968.

18 - Louis Hjelmslev, Prolégomènes a une théorie du langage, les éditions de minuit, Paris1971.